الكتب

٢ — أهل الكهف

قصة مسرحية للاستاذ توفيق الحكيم

بحث وتحليل ونقد بقلم الأديب عبد الرحمن صدقى

ألوان التفكير:

لا نقصد الى استقصاء ألوان التفكير فى الرواية . فالتفكير العميق المنساب فى غير لجب ولا عنف هو من أظهر مميزاتها . وقلما تخلو منه صفحة من صفحاتها . والقارىء المطلع على الادب العالى فى الأمم الراقية يألف هذه الأفكار ، ولا يجد هذه المناحى من التفكير غريبة عنه . وانما براعة هذا المؤلف المسرحى حق براعته فى أنه لا يشعرك بأن له فكرة ، أو أنه يفكر ويتفلسف . وانما هى وقائع الحال ناطقة ، وهذا الذى تسمعه هو ما يجرى على لسان الحال ، وتنطلق به كل نفس على سجيتها فى مثل هذه الملابسات

فالرواية لها فكرة عامة خرج بها المؤلف من بعث هؤلاء الذين بعثوا . وفيها تشاؤم متغلغل خفى نكتفى بالتنويه به تاركين للقراء اكتناهه .

كما أن كل فصل من الفصول الأربعة يكاد يكون له فكرة خاصة يدور على محورها . فهو يعرض فى الفصل الاول للايمان وصنوفه : قمة ايمان الراعى الموروث فى رسوخه وبساطته من غير تحليل ولا تعليل ، فهو ايمان التسليم الخاشع والعاطفة الجميلة الساذجة . فاسمع اليه يروى يوم أن ذهب الى المدينة فى بعض شأنه ، فلمح خارج أسوارها راهباً يتكلم فى جمع صغير بين خرائب قديمة تخفيهم عن الأعين ؛ فاقترب وأصغى اليه ، فاذا به كأنما انقلب إنساناً آخر . فلما سأله صاحباه فى الكهف عما كان يقوله الراهب ؛ قال : « لست أذكر شيئاً مما قال ، لكنى لن أنسى ماشعرت به إذ ذاك ، إحساس لم يعترنى فى حياتى من قبل الا مرة ، إذ كنت أهبط الجبل ساعة غروب ، فأشرفت على منظر بالحلا . لم أر أجمل منه ، فلبثت ليلتى أفكر وأستذكر أين رأيت هذه الصورة من قبل ؟ أفى الطفولة ؟ أفى الاحلام ؟ أم قبل أن أولد ؟ . إن هذا الجمال على غرابته ليس مجهولا منى . وقمت فى الفجر فذكرت صورة البارحة ، وفجأة برقت فى رأسى فكرة : هذا الجمال كان موجوداً دائماً منذ الازل ، منذ وجدت الخليقة . هذا الاحساس بعينه هو ما شعرت به وأنا أصغى الى الراهب . إن كلامه الذى أسمعه لاول مرة ليس مع ذلك جديداً عندى . أين سمعته ومتى ؟ أفى الطفولة ؟ أفى الحلم ؟ أقبل أن ولدت ؟ وتولدت فى نفسى عقيدة أن هذا الكلام هو الحق ، إذ لا أتصور بدء الوجود بدونه ولا انتهاءه بدونه . . . »

أما المستشاران فهما بطبيعة تعليمهما وحداثة عهدهما بالعقيدة يؤمنان ايمان العقل والمنطق . فلا شأن لله فيما وقعا فيه بل هما اللذان أوقعا نفسيهما فى التهلكة . وهما يفكران فى أمرهما أكثر من تفكيرهما فى الله . واذا صليا له فلكى يسألانه الخير — هذا لامرأته وولده وذاك لحبيبته ، والحب يبتلع كل شىء حتى الايمان لأنه ايمان أقوى من كل ايمان . وما دام الله قد خلق للناس قلوبا فقد نزل عن بعض حقه عليهم . . . واذا هما قابلا بين ايمانهما هذا وايمان الراعى قدر اى تحليل وتعليل أن صاحبيهما خلى ، فما يضيره أن يمنح قلبه كله لله أو للشيطان

ثم ايمان المرأة ، فقد كان حسب ابنة الملك أن تسمع الفتى الذى تحبه يقول لها وهى فى ثياب بيضاء تخطر فى بهو الأعمدة فى هدأة الليل وسكون القصر « إنك ملك من ملائكة السماء » ، وأن تعلم منه أن هذا فى المسيحية اسم لمخلوقات أسمى وألطف من مخلوقات الارض ، حتى رضيت نفسها عن المسيحية وارتاحت لها بحافز مما فى الاحياء عامة وفى المرأة خاصة من الانانية الكامنة .

ويأتى الفصل الثانى فنراه يعالج فى مطالعه طبيعة المرأة . فهى أبدا امرأة ، قديسة كانت أو غير قديسة ، ملكة أو من بنات السوقة فاذا قيل ارتباط بعهد مقدس لم يخطر لها انه مع الله بل حسبته مع من تختاره قلبها . فقلب المرأة يتسع دائما لله وغير الله . ولعل القديسة كانت تفضل أن تكون امرأة لو أنها استطاعت .

والفصل الثالث عن الزمن . فالمؤلف يشعرك بأنه لا حقيقة للزمن خارج شعورنا وأنه على قدر تطور شعورنا تكون حركة الزمن . فكل واحد من أهل الكهف لم يشعر بشقة الزمن الذى غير حتى أحس بالشقة السحيقة بينه وبين من حواليه فى الشعور . والذى أطال وهم أصغر فتية الكهف أنه التقى بمن تشبه حبيبته ، وتكاد تكون

مثالا لتقمص روحها ، فلم يصدق دورة الزمن حتى حدث له ما حدث . ثم اسمع لقائل منهم يقول : « حياة جديدة ! إن مجرد الحياة لا قيمة لها . ان الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض وعن كل صلة وعن كل سبب لهى أقل من العدم بل ليس هناك قط عدم . ما العدم إلا حياة مطلقة »

والفصل الأخير يعرض لحيرة العقل فى الحد بين الوهم والحقيقة ، وما يعترض المعرفة الصحيحة من عقبات لقيام العواطف الداخلية والمؤثرات الخارجية ، وكيف اختلاط الحقيقة بالوهم بحيث يرفع الخيال عالم الواقع ويجعل الحلم عالم اليقظة ، كما يفعل الفنى بمادته من الحياة فيسبغ عليها من عبقريته معنى فنيا من جمال أو فظاعة لم يكن لها

أسلوب التأليف

المؤلف خبير بالقصة المسرحية ، وما يدخل هذه الصناعة من التفنن والاحتيال . فلم يغفل عن شىء فيه تقوية العمل والحركة فى روايته . وقد بث فى أثناء كل فصل من فصولها المفاجأة بعد المفاجأة فكلما استقرت حواسك وألفت من القصة مسلكا ، ابتدهك بما يجدد اهتمامك ويفززك ، فلا يدركك فتور ولا ركدة . والعجيب أنك على عرفانك بوقائع القصة المروية فأنه يسوقها فى نظام يجعل شعورك بها جديدا ، ولا يسردها سرداً فى نفس واحد ، بل يفرط عقدها حبة حبة بين حين وآخر فى ظرفها الملائم وموقعها المناسب ، فاذا كل واقعة تفعل فى نفسك كأنه أول عهدك بها . كما أنه لا يفتأ يستغل كل جزء منها فى أصغر تفاصيله ويستنبطه حتى آخر قطرة فلا يتركه بعده الامصاصة جافة . ومؤلفنا من طبيعة ذهنه الاستطراد والتنقل من فكرة الى فكرة ومن أحساس الى إحساس ، تتداعى جميعها فى سجات حالمة دون ان يكون سياقها منبتاً وعراها متفككة ومن ديدنه أحيانا تكرار الجمل وترديد الخواطر فى مواضع تشعرك بتعلق القوم بأمل ضعيف واه يعيدون فيه ويستأنفونه محاولين بهذا إقناع أنفسهم . ثم ان عنده مقدرة بارزة الأثر فى تعقيد المواقف وخلق سوء التفاهم بحيث يتكلم كل فريق ويتصرف بما يفهمه الآخر على غير الوجه المقصود وإن كان يحتمله منطوقه . وله هنا وهناك فكاهة دقيقة تجمع فى بعض الاحايين بين الضحك والفاجع ويتجاور فيها الدمع والابتسام

وعبارة الكاتب فيها قصد وايجاز تغنى بالاشارة عن الافاضة وتنطوى على ايحاء يفتح للقارىء نوافذ وكوى على آفاق وأجواء . وفيه شاعريه غنية تمده بالجيل قالباً ودلالة . فيقول مثلا عن أساطير الأمم أنها ضمير الشعب . ويقول على لسان أحد فتية الكهف وقد برم بالحياة فى هذا الوسط الجديد « إلى الكهف ، الكهف هو الحلقة التى تصل بعالمنا المفقود ، وعلى لسان آخر منهم « أنا أشباح . لسنا ملك الزمن . إنما نحن ملك التاريخ . وقد هربنا منه . فالتاريخ ينتقم ! » . كذلك قصة أورشيا فهى فى ذاتها جميلة رائعة ويزيد فى روعة جمالها موضعها من قصة أهل الكهف لما بينهما من مقابلة ، ولو أنه يخشى ألا يكون للرومان والمسيحيين الأوائل علم بأساطير اليابان فى عزلتها العتيدة

وإلى هذا ملكة فى التصوير ملحوظة . وأبرع مثال عليها وصف الراعى لاحساسه بالغربة فى هذه البيئة المستحدثة :

« آه لو تعلمان ما رأيت الآن فى شارع بطرسوس ، إن كانت هذه بعد مدينة طرسوس ! لو رأيتما وقد أحاطت بى ناس فى ثياب غريبة وعلى وجوههم ملاح غريبة . وأينما سرت فهم فى إثرى بنظراتهم المستطلعة الحذرة . وكأنهم يتفحصون أمرى تفحص من يحسبنى من عالم الجن . لا أستطيع مخاطبة أحد منهم ، وإن فعلت فلا أحسبنى أجد مجيبا بل نظرات صامتة مفزوعة . . . بل إنى سمعت أثناء هذا نباحا خافتا مخنوقا ، فالتفت فألفيت كلبى قطميرا كذلك قد أحاطت به كلاب المدينة ، وطفقت ترمقه وتشمه كأنه حيوان عجيب . وهو يحاول الخلاص من خناقها ولا يجد الى ذلك سبيلا . وجرى المسكين أخيراً الى جدار قريب ووقع نحوه اعيا . ورعبا ، والكلاب فى أثره ، حتى وقفت منه على قيد خطوة . تعيد النظر اليه ، ويريد بعضها الدنو منه لمعاودة شمه فيقصيها الحذر . . . هذا أنا ، وهذا كلبى قطمير فى هذه الحياة الجديدة »

وله أيضا زكانة لادراك العواطف المركبة وتحليلها ، كاستماع بريسكا بعنف قى الكهف فى كلامه معها يحسب أنها حبيته تلك التى عاهدته فى العصور الغابرة وأنها خانته وحنثت بعهده ، فهى وإن صدمها عنف هذا الخطاب الا أنه يشعرها بأنها محبوبة — ولو وهما ، يشعرها بعاطفة الحب التى تعيش كل امرأة فى انتظارها

كذلك له توفيقات عجيبة نذكر منها على قبيل المثل أنه يجعل الراعى أول من استيقظ من أهل الكهف كعادة الرعاة فى التبكير ويتلوه مرنوش لأنه أكبر الصاحبين سنا والمرء يقل نومه كلما تقدم به العمر ، وأخيرا مشليذا لأنه فتى والفتيان نومهم عميق . ونجتزىء لضيق المقام بهذا المثل . ولا نحسب أن المؤلف حسب لكل هذه التوفيقات حسابها الدقيق ودبر لها التدابير . ولكنها — فيما نعلمه عن المؤلف — الهام ذوقه الفنى . وان هذا الذوق الفنى العميق الشعور هو فيما يكتب هاديه ومسدد خطاه

الختام

فقصة الكهف قد استوفاها مؤلفها الساب من ناحية التأليف المسرحى ورسم الشخصيات وعمق التفكير وجمال الحوار . ولا شك أن القارىء لا يفرغ منها حتى يقول : هذا الفتى فتان حتى أطراف أنامله